مظاهر الفكر التّربوي و الإصلاحي
عند الشّيخ محمد البشير الابراهيمي كنموذج
Manifestations of educational and reform thought of Sheikh Muhammad Al-Bashir Al-Ibrahimi as a model

د. قرود أحمد
garoudahmed11@gmail.com
جامعة الجلفة

ملخص:

لقد ارتبطت الحركة الإصلاحيَّة في الوطن العربي عمومًا منذ بداية القرن العشرين بالعديد من العوامل التَّاريخيَّة والسِّياسيَّة والاجتماعيَّة، الَّتي أفرزتها الظُّروف الدَّاخليَّة والخارجيَّة لكلِّ مجتمع فبرزت الكثير من النَّماذج الإصلاحيَّة والفكريَّة، على المستوى الفردي والجماعي متأثِّرة بالواقع الاجتماعي المضطرب والمزري نتيجة الاحتلال الأجنبي لمعظم العالم العربي والإسلامي ، والَّذي حاول بدوره فرض نمط مُعيَّن من ثقافة التَّفكير النَّظري والتَّطبيقي الَّتي تخدُمه وتُبقي على مصالحه وقوانينه الجائرة، ولكن عقول الإصلاحيِّين الواعية بحال الفرد والمجتمع، من أمثال الشَّيخ محمد البشير الإبراهيمي كنموذج يُحتذى به، كانت لها وقفتها التَّاريخيَّة والوطنيَّة الَّتي حملت هموم الأمَّة العربيَّة والإسلاميَّة على عاتقها بشكل عام ومعاناة الشَّعب الجزائري بشكل خاص ، فاتَّخذت من المساجد منابر لها في تنوير العامَّة من شرائح المجتمع بما يتوافق مع مستواها البسيط تدريجياً، الهدف منها تأسيس لقاعدة شعبيَّة مستقبليَّة، تحتضن المشروع النَّهضوي والإصلاحي الحضاري فيما بعد ،وعملت على توظيف المدارس القرآنيَّة في خطوات عمليَّة الغرض منها إيجاد حركة تعليميَّة وتعلُّميَّة تربويَّة تُساهم في تجاوز محنة الجهل والأمِّيَّة الَّتي ألمَّت بشعبنا الجزائري المغلوب على أمره ،نتيجة سياسة التَّجهيل والفرنسة الممنهجة ، وعلى صعيد آخر كان من الضَّروري تكامل الجهود الإصلاحيَّة في استغلال الإعلام المكتوب كوسيلة للخطاب التَّنموي والدِّيني والتَّعبوي الجماهيري بُغية الالتفاف حول هدفها المنشود وكذا نشر الوعي الاجتماعي والثَّقافي ،واستقطاب النُّخبة من المثقَّفين عن طريق التَّواصل والحوار البنَّاء والمُثمر ،ممَّا ساهم في إيجاد شيء من توازن القوى مبدئياً ؛ سمح لجمعيَّة العلماء المسلمين، كطرف يتحدَّث بلسان وحال الشَّعب الجزائري، من التَّواجد على أرض الواقع الاجتماعي للشَّعب الجزائري ،وبالتَّالي فنظرة هذا الرَّجل الفكريَّة و نهجه الاصلاحي مهَّد الطريق للنَّاشئة في تلك الحقبة الصَّعبة لمجتمعنا لانطلاقة تنويريَّة حقيقيَّة كان من ثمارها ونتائجها الحفاظ على هويَّتنا الإسلاميَّة العميقة، واستحداث قفزة نوعيَّة من التَّفكير والتَّخطيط الاستراتيجي المبني على كاريزما وقيادة اجتماعيَّة ثوريَّة.

summary :

The reform movement in the Arab world in general has been associated with many historical, political and social factors since the beginning of the twentieth century, which were brought about by the internal and external conditions of each society. Many reform and intellectual models have emerged, on the individual and collective level, affected by the foreign and societal reality of the dominated social reality He who in turn tried to impose a certain pattern of theoretical and applied thinking culture that serves him and keeps his unfair interests and laws, but the minds of reformists conscious of The state of the individual and society, such as Sheikh Muhammad Al-Bashir Al-Ibrahimi as a role model, has had a historical and national stand that carried the concerns of the Arab and Islamic nation on them in general and the suffering of the Algerian people in particular, so it has taken from the mosques its platforms to enlighten the public with what they have agreed with the public The gradual simple, the aim of which is to establish a future popular base, to embrace the

Renaissance and Civilizational Reform Project later on, and worked to employ the Qur'anic schools in practical steps aimed at creating an educational and educational movement that contributes to Overcoming the ordeal of ignorance and illiteracy that has afflicted our conquered Algerian people, as a result of the policy of ignorance and systematic Frenchness. On the other hand, it was necessary to integrate the reform efforts in exploiting the written media as a means of developmental, religious, and mass public discourse in order to circumvent its desired goal and spread the awareness, and spread the awareness Of the intelligentsia through constructive and fruitful communication and dialogue, which contributed to the creation of some balance of power in principle. Find on the ground the social reality of the Algerian people, and accordingly this man's intellectual outlook and his reformist approach paved the way for the emerging in that difficult era of our society for a real enlightenment breakthrough whose fruits and results were the preservation of our deep Islamic identity, and the creation of a qualitative leap of thinking and strategic planning

مقدّمة:

تأثّرت الحياة الاجتماعيَّة الفكريَّة والإصلاحيَّة في بداية القرن العشرين بالعديد من المناهج النَّهضوية في المشرق العربي وخاصَّةً المصريَّة منها ممَّا انعكس على ظهور فكر موازي تشبَّع بفكرة التَّغيير نتيجة الظُّروف المختلفة آنذاك الَّتي كان يعيشها الشَّعب الجزائري ؛ ومن بين العقول الَّتي سعت في إيجاد أرضيَّة الإصلاح والانطلاق بفعل التَّغيير، والتَّغيُّر الاجتماعي الشَّيخ محمَّد البشير الابراهيمي الَّذي يُعتبر من أهمِّ روَّاد الإصلاح الجزائري في الفترة الممتدَّة من 1920 إلى 1965 فمن هو البشير الإبراهيمي وماهي سياسته التَّغييريَّة والإصلاحيَّة وماهي الدَّوافع والأسباب الَّتي جعلت منه يُساهم في بناء مشروع الإصلاح في الجزائر ويُنادي بشموليَّة الإصلاح والتَّغيير، وفق استحداث مناهج وآليَّات تتلاءم وطبيعة المرحلة؟

■ **المولد والنَّشأة والمسؤوليَّة التَّاريخيَّة:**

من أبرز أعلام الإصلاح في العالمين العربي والإسلامي ، كان صدَّاحاً بما انتهت إليه قناعاته ولا يخاف في إبدائها لومة لائم(1) ، وُلد في1889م بقرية أولاد براهم ولاية سطيف. في بيت من بيوت العلم فبدأ في التَّعلُّم وحفظ القرآن الكريم في الثَّالثة من عمره على يدي أقاربه من حُفَّاظ القرآن الكريم بإشراف عمِّه محمَّد المكِّي الابراهيمي رحمه الله وكان حامل لواء الفنون العربيَّة غير مدافع من نحوها وصرفها واشتقاقها ولغتها وفي سنِّ السَّابعة لزم عمَّه محمَّد المكِّي فتعلَّم فنون العلم المهمَّة في ذلك السِّن مع الاستمرار في حفظ القرآن أكثر . وفي سنِّ التَّاسعة أتقن حفظ الكتاب الله مع تفسير مفرداته الصَّعبة زيادةً على ألفيَّة ابن مالك ومعظم الكافية له وألفية ابن معطي الجزائري ، وألفيتي الحافظ العراقي في السِّير والأثر. مع حفظ جميع الجوامع في الأصول وتلخيص المفتاح للقاضي القزويني ورقم الحُلل في نظم الدُّول لابن الخطيب مع حفظه الكثير من شعر بن عبد الله بن خميس التلمساني شاعر المغرب والأندلس(2). وغيرها من أمَّهات الكتب ممَّا ساعد الشَّيخ الابراهيمي في توظيف فصاحته الأدبيَّة واللُّغويَّة في الخَطابة وشحذ الهمم و الإصلاح والنَّهضة ،وتكوينه على أصول اللُّغة العربيَّة قبل أن يكون إماماً مصلحاً وفقيهاً أصولياً ومربياً حكيماً وسياسياً محنَّكاً و أديباً شاعراً وخطيباً متفوِّهاً يهُز القلوب ببيان ساحر يعيد إلى الأذهان ما كان للخطابة العربيَّة من مكانةٍ وسلطان في عهودها القديمة الزَّاهرة وهو محدث بارع لطيف يغمر مجالسه بالحكمة ويحمِّلها بالنكتة ويعطِّرها بأريج اللُّطف يُنعش الأرواح ويُؤنسها بشعاع من الفكر يهدي العقول .(3) وقوَّة الخطابة في الوعظ والإصلاح والإرشاد ناجمة عن تنشئته على حب

اللُّغة العربيَّة ممَّا أعطاه ملكة الإقناع والحجَّة وهو الدَّليل ،فاستطاع بذلك أن يَؤمَّ المصلِّين في سن مبكِّرة زيادة على الخطابة، والوعظ، وهو من مؤسِّسي جمعيَّة العلماء المسلمين ورئيسها ،بعد وفاة الشَّيخ الرَّئيس عبد الحميد ابن باديس (1940/04/16م) ،ويُعتبر المنظِّم والمنسِّق بين أعضاءها، والمخطِّط لمعظم مراحلها و سياستها الدَّاخليَّة والخارجيَّة، كانت وفاته يوم الخميس 18 محرَّم 1385هـ الموافق 20 ماي 1965م بالجزائر العاصمة.

■ **التَّأثير والتَّأثُّر ودواعي الإصلاح المشتركة بين ابن باديس والإبراهيمي .**

تنظيم حملة جارفة على البدع والخرافات والضلال في الدِّين / . الشُّروع العاجل في التَّعليم العربي للصِّغار داخل البيوت ربحاً للوقت قبل بناء المدارس/ . تجنيد المئات من تلامذة الجمعيَّة ودعوة الشُّبان المتخرِّجين من الزَّيتونة للعمل في تعليم أبناء الشَّعب/ . العمل على تعميم التَّعليم العربي للشُّبَّان على النَّمط الَّذي بدأ به ابن باديس/ . مطالبة الحكومة برفع يدها عن مساجدنا ومعاهدنا الَّتي استولت عليها لنستخدمها في تعليم الأمَّة / . مطالبة حكومة الاحتلال بتسليم أوقاف الإسلام / . مطالبة الحكومة الفرنسيَّة باستقلال القضاء الإسلامي في الأحوال الشَّخصيَّة مبدئياً / مطالبة حكومة العدو بعدم التَّدخُّل في تعيين الموظَّفين الدِّينيِّين . والإصلاحات بين الرَّجلين بمثابة منظومة متعدِّدة ومتجدِّدة في كلِّ المجالات، اقتصرنا على الأهمِّ منها.

■ **الحرِّيَّة الحقيقيَّة في إصلاح العقول ومحاربة الجمود:**

يقول الشَّيخ البشير الإبراهيمي إنَّ تحرير العقول أساس تحرير الأبدان وأصلٌ له ومحالٌ أن يتحرَّر بدن يحمل عقلاً عبداً ، إن هذا النَّوع من التَّحرير لا يقوم به ،و يقوى عليه إلَّا العلماء الرَّبانيُّون المصلحون.(4) من خلال هذه المقولة يُنادي العلَّامة الإبراهيمي إلى تحرير العقول من الأهواء والأحكام المطلقة وبناء شخصيَّة متحرِّرة من قيود الاستعباد والفكر المتَّبع. وهي من أهمِّ المراحل التَّمهيديَّة لبناء الإنسان روحياً وقيمياً وتربوياً حتَّى يندمج اجتماعياً وحضارياً ويُعوَّل عليه. كما أكَّد الشَّيخ على أنَّ السَّبيل القويم الَّذي يؤدِّي إلى حفظ الجيل الجديد من هذه الشُّروط المتوارثة هو توثيق عرى الأخوَّة بين أفراده ، وإلى توحيد أفكار ومشاربه واتِّجاهاته وإلى تصحيح فهمه للحياة ، وتسديد نظرته إليها ، وتشديد عزيمته في طلبها هو المدرسة العربيَّة الَّتي تصقل الفكر والعقل واللِّسان وتسيطر عليها ، وتجويه الجيل النَّاشئ إلى الإسلام والعرب .(5)

■ **المناداة بإصلاح المساجد من الأولويَّات وإعادة النَّظر فيما يُقدِّمه الأئمَّة والدُّعاة:**

يقول رحمه الله : لو أنَّ فقهاءنا أخذوا الفقه من القرآن ، ومن السُّنة القوليَّة والفعليَّة ومن عمل السَّلف أو من كتب العلماء المستقلين المستدلِّين الَّتي تقرن المسائل بأدلَّتها وتبيِّن حكمة الشَّارع منها ، لَكان فقههم أكمل ، وآثاره الحسنة في نفوسهم أظهر ، ولكانت سلطتهم على المستقبل من العامَّة أمتن وأنفذ ، ويدهم في تربيتهم وترويضهم على الاستقامة في الدِّين الأعلى .(6) وهنا ينوِّه الشَّيخ بالدَّور الَّذي يؤدِّيه الفقهاء والأئمَّة على أنَّه دور سطحي قاصر لا يرقى إلى التَّغيير المنشود ، وعلى أنَّه غير مؤثِّر في أوساط الشَّعب وبذلك لا بدَّ أن يجسِّدوا تعاليم القرآن والسُّنة بحذافيرها وأن يعملوا على المساهمة أكثر في تنوير الفرد والمجتمع وأن يكون لهم دور إيجابي في التَّوعية الدِّينيَّة والتَّربويَّة مما يُدعِّم مصلحة ومتطلَّعات وآفاق المجتمع الجزائري المستقبليَّة.

إصلاح التَّربية والتَّعليم مطلب اجتماعي ضروري عاجل في رأي الشَّيخ :

يتَّضح ذلك من خلال رسائله للقائمين على التَّربية و التَّعليم من مُدرِّسي الكتاتيب والمعلِّمين في مدارس الجمعيَّة ومعاهدها حيث يقول في بعضها (إنَّكم رعاةٌ وإنَّكم مسؤولون عن رعيَّتكم وإنَّكم بُناة ، وإن البَّاني مسؤول عمَّا يقع في البناء من زيغ أو انحراف(7) ،أي أنَّه يلقى على عواتقهم أمانة تعليم أبناء الشَّعب الجزائري كما يحمِّلهم المسؤوليَّة الكبرى في تجاوز محنة جهل وأمِّيَّة المجتمع الجزائري ،وكان قصد الشَّيخ واضح وجلي في التَّمهيد لمرحلة معيَّنة من تاريخ الجزائر معزِّزاً ذلك بمجهوده الفردي الَّذي حضره في منفاه بآفلو والمتمثِّل في المُرشد التَّربوي الَّذي يقول بصدده (إنَّ الغاية من توحيد البرنامج هي توحيد التَّربية والتَّعليم حتَّى ينشأ هذا الجيل مطبوعاً بطابع واحدٍ في لسانه وبيانه وقلمه وفي تفكيره ومشربه وفي آرائه في الحياة ونظرته إليها وأحكامه عليها (8) ، ووضَّح كيف يجتاز التِّلميذ النَّاشئ المراحل السِّت الَّتي حدَّدها في المرشد؛ إن لم يُعقه عائق حينما يجتاز العقد الأوَّل من عُمره بقليل ، فيكون غذاءه العقلي مسايراً لغذائه الجسمي ويكون تكوينه الرُّوحي جارياً مع تكوينه البدني في عنان واحد ويكون نموُّ مداركه العقليَّة بالعلم والمعرفة مقارناً لنموِّ إحساساته النَّفسيَّة بالطَّبع والفطرة ،فيتلقَّى العقد الثَّاني من عمره وهو عهد الإحساس بجمال العلم، وشرف الفضيلة والدِّين ويتلقَّى هنا العهد الَّذي هو عهد النَّزوات وتنبُّه الغرائز الفطريَّة، مسلَّحاً بما يدفع غوائلها ويشذب زوائدها ،ويُهذِّب حواشيها مراحل التَّعليم الابتدائي، وهي بالأصول- مراحل التَّكوين الأولى للنَّاشئة وعلى أساسها يُبنى مستقبلهم، فإن كان هذا التَّكوين صالحاً كانوا صالحين لأمَّتهم ولأنفسهم وإن كان ناقصاً مختلاً زائفاً بنيت حياة الجيل كله على فسادٍ، وساءت آثاره في الأمَّة وكانت الأمِّيَّة أصلح لها منه ،وأسلم عاقبة(9).كما حظيت المرأة بنصيبها من التَّعليم في فكره الإصلاحي حيث يُشعر ويقول:

وإنَّها إن أهملت كان الخطر ---------- كان البلاء كان الفنا كان الضَّرَرْ
وإنَّها إنْ عُلِّمت كانت وَزَرْ---------- أَوْلاَ فَوِزْرُ جَالـــــبِ سُوءَ الْأَثـــرْ
وَمَنْعُهَا مِن الكِتابِ والنَّظرْ ---------- لم تَأتِ فيـــه آيـــــة ولا خَبَرْ

وتعقيباً على ما تطرَّق له الإبراهيمي؛ أي لا تنس البنت في التَّعليم فإنَّها أخت الابن ، وهذا هو المقصود الَّذي مهَّد له الشَّيخ رحمه الله.(10) حيث اهتمَّ بشأن المرأة التَّعليمي و قدَّم لنا من خلال هذه الأبيات الشِّعريَّة ما سيؤول له الأمر الاجتماعي لو تغاظينا في تعليم البنت منذ الصغر وأكد على أن للمرأة دور اجتماعي لو أهملناه كان شأن ذلك خطير على الحياة الاجتماعيَّة للفرد والمجتمع وكذا التَّنشئة الاجتماعيَّة التَّعليميَّة للمرأة ومدى مساهمتها في بناء منظومة القيم.

- **الدَّعوة إلى تجديد منظومة القيم لدى الأجيال النَّاشئة:**

يتحدَّث في هذه المناسبة شارحاً ومفسِّراً ومقارِناً حيث يقول (لا يضرُّكم ضعف حظِّكم من العلم إذا وُفِّر حظُّكم من الأخلاق الفاضلة فإنَّ أمَّتكم في حاجةٍ إلى الأخلاق والفضائل وإنَّ حاجتها للفضائل أشدُّ وأوكد من حاجتها إلى العلم لأنَّها ما سقطت هذه السَّقطة من نُقص في العلم ولكن من نقص في الأخلاق).(11) نُلاحظ هنا أنَّ الابراهيمي ألحَّ على عامل الأخلاق الَّذي يعتبره أهمَّ نُقطة في الإقلاع التَّربوي والحضاري لأيِّ أمَّة وبدون أخلاق

فاضلة لا قيمة للعلم لأنَّ أزمة الشَّعب الجزائري الَّذي ثُقِّف بثقافة المحتل إلى حدٍ ما في تلك الأيَّام . في حاجةٍ ماسَّة للحفاظ على مكتسباته ورصيده من الأخلاق المستمدَّة من ثقافته العربيَّة والإسلاميَّة؛ والتَّجديد فيها حتَّى ينطلق في التَّغيير والاستقرار، ومن هذا المنطلق يحرص فضيلته على أنَّ الأخلاق والآداب والأفكار والإحساسات و الاتِّجاهات العامَّة والمشخِّصات الخاصَّة هي الأمتعة الَّتي يرثها جيل عن جيل ،ومنها يتكوَّن مزاجه صِحةً واعتلالاً(12).

■ **الإصلاح العلمي مطيَّة لوجود قاعدة نُخبويَّة مثقَّفة تقود الشَّعب الجزائري:**

إنَّ تقديم الجمعيَّة للإصلاح الدِّيني على الإصلاح العلمي ضرورة إقتضاها طغيان الفساد في العقائد حتَّى أصبح من آثاره اللَّازمة التَّزهيد في العلم ، وليس معنى هذا أنَّ الجمعيَّة لم تحم حول الإصلاح العلمي (13). إنَّ من نقائصنا المتَّصلة بحالتنا العلميَّة الحاضرة ثلاثاً لا كمال معها ومن المؤسف أنَّ ناشئتنا العلميَّة المستشرفة إلى الكمال لا تفكِّر في السِّلبي منها ولا الإيجابي وهي: ضعف الميل إلى التَّخصُّص و ضُعف الميل إلى الابتكار... والكسل عن المطالعة .و إذا كان الأوليَّان متعسِّرتين لفقد دواعيهما ، فإنَّ الثَّالثة أقرب إلى الإمكان الحق أقول إنَّ شبابنا المتعلِّم كسول عن المطالعة ،والمطالعة نصف العلم أو ثلثاه فأوصيكم يا شباب الخير بإدمان المطالعة والإكباب عليها ولتكن مطالعتكم بانتظام حرصاً على الوقت أن يضيع في غير طائل وإن كنتم تريدون الكمال فهي إحدى سبل الكمال (14).

-إعداد الفرد للعمل والعلم في ثقافة الابراهيمي إصلاح تطبيقي دون النَّظري:

يا أبناءنا ، إنَّ الحياة قسمان ، حياة علميَّة ، وحياة عمليَّة ، وإنَّ الثَّانية منهما تنبني على الأولى قوَّة وضعفاً وإنتاجاً وعقماً ، وأنَّكم لا تكونون أقوياء في العمل إلَّا إذا كنتم أقوياء في العلم ، ولا تكونوا أقوياء في العلم إلَّا إذا انقطعتم له ، ووقفتم عليه الوقت ، إنَّ العلم لا يعطي القيادة إلا لمن مهره السهاد(الأرق)(15) وصرف أعنَّة الاجتهاد (16) ،هذه الخطوة من طرف الشَّيخ الابراهيمي هي في حدِّ ذاتها مشروع حضاري يسعى من خلاله إلى بعث استراتيجيَّة عمليَّة بعيدة المدى يُدرك مدى أهميَّتها ومشقَّتها ،نظراً للعراقيل الَّتي تلقَّاها وسيتلقَّاها من طرف الاحتلال وأعوانه وأذنابه.

■ **الخطابات والآراء السِّياسيَّة للإبراهيمي حدَّدت مواقفه الإصلاحيَّة والتَّاريخيَّة :**

كان من أهمِّ القضايا الَّتي تطرَّق إليها البشير الابراهيمي في إصلاح حال الشَّعب أن جعل من نفسه ناطقاً رسمياً يتحدَّث باسم الشَّعب الجزائري وهذه الرِّسالة الَّتي تُبلور لنا مدى اهتمام الإمام بمصالح مجتمعنا فهو يُطالب وزير الدَّاخلية الفرنسي بإصلاحات شاملة تُراعي مطالب ورغائب الجزائريِّين وهي في الأساس رسالة سياسيَّة واجتماعيَّة وإصلاحيَّة ، و يُخاطبه من خلالها بناءً على قناعاته الشَّخصيَّة في انتزاع حقٍ من الحقوق المشروعة للشَّعب الجزائري ،وهذا مفاد الرِّسالة الموجَّهة(إن الأصداء المتجاوبة عن زيارتكم للقطر الجزائري أفهمت الأمَّة الجزائريَّة المسلمة أنَّها زيارة تمهِّدون بها لإصلاح سياسي واجتماعي واقتصادي يفتقر إليه هذا الوطن ، فالتفتت هذه الأمَّة إلى الماضي واستعرضت الزِّيارات الوزاريَّة المتعاقبة وآثارها فهبطت درجة التَّفاؤل فيها إلى حدٍ بعيد ، ولكن ما جاء في بعض خطبكم (إنَّ الظُّروف غير الظُّروف) أمسك فيها رمق الأمل كان من تمنِّيات الأمَّة أن يقال عن زيارتكم إنَّها استجابت للصرفة المنبعثة من أعماقها وإنَّها تمهيد لتحقيق مطالبها ..... وأنَّ القضيَّة

الجزائريَّة لا تداوى بإصلاحات مهما كانت سريعة وإنما تداوى بحقوق تُعطى ورغائب تتحقَّق(17).ومن جانب آخر يعكس مدى حنكة الشَّيخ السِّياسيَّة تراه ينذِّد بعامل الوحدة السِّياسيَّة بين كلِّ الطَّوائف والأحزاب السِّياسية الجزائري فيقول في هذا الصَّدد (دعونا بالقلم مرَّات أحزابنا السِّياسية الجزائريَّة إلى الاتحاد وبيَّنا لهم ما يجهلونه من ثمراته وفوائده ، ودعونا إليه باللِّسان في مجالس لا تحصى ، نوَّعنا العبارات وشرحنا الأسباب الدَّاعية إليه من واقعة ومتوَّقعة وخاطبنا بذلك جماعة من المسؤولين وذوي الرَّأي من أحزابنا (18)،وعلى صعيد آخر نستجدي موقفه من الثَّورة التَّحريريَّة المباركة ، من خلال هذا النِّداء الإذاعي الَّذي ألقاه الابراهيمي في 15 نوفمبر 1954 بالقاهرة ،والَّذي يبدأه (بسيروا على بركة الله وبعونه وتوفيقه إلى ميدان الكفاح المسلَّح ، فهو السَّبيل الوحيد إلى إحدى الحسنين إمَّا الموت وراءه الجنَّة وإمَّا حياة وراءها العزَّة الكرامة .(19) ،كما يحضُّ العاملين من قادة هذه الأمَّة وهداتها على أن يتعاهدوا على هذا العنصر النَّامي بالعناية ، وأن يحوطونه بالرِّعاية ، وأن يأخذوا بيده إلى الكمال الَّذي استعد له ، فلا يمضِ زمن حتى تتكوَّن لنا أمَّةٌ صحيحة العقول ، صحيحة العقائد صحيحة التَّفكير صحيحة الأبدان صحيحة الأعمال(20).

■ **سيرة البشير الإبراهيمي في الإصلاح الاجتماعي صورة مصغَّرة من نشاطه النَّهضوي:**

كنت ألقي عشرة دروس في اليوم أبدأها بدرس في الحديث بعد صلاة الصبح وأختمها بدرس في التَّفسير بين المغرب والعشاء وبعد صلاة العتمة أنصرف إلى أحد النَّوادي فألقي محاضرةً في التَّاريخ الإسلامي فألقيت في الحقبة الموالية لظهور الإسلام من العصر الجاهلي إلى مبدأ الخلافة العباسيَّة بضع مئات من المحاضرات ، وفي فترة العطلة الصَّيفيَّة أختم الدُّروس كلَّها وأخرج من يومي للجولان في الإقليم مدينةً مدينة وقريةً قرية فألقى في كلِّ مدينة درساً أو درسين في الوعظ والإرشاد وتفقُّد شُعبها ومدارسها . وكانت أيام جولتي كلُّها أيام أعراس الشَّعب؛ فإذا انقضت العطلة اجتمعنا الاجتماع العام وفي أثره الاجتماع الإداري ويقدِّم كل منا حسابه ونظَّمنا شؤون السَّنة الجديدة ثم انصرفنا إلى مراكزنا .(21)

■ **بعث اقتصاد اجتماعي من طرف الشَّيخ من خلال تماسك وتعاون المجتمع الجزائري:**

لطالما نادى الشَّيخ الابراهيمي بتأسيس شركات التَّعاون بين الفلَّاحين وشركات الَّتعاون بين التُّجار لتقي الصِّغار من الجانبين شرَّ تحكُّم الأجانب في أملاكهم ومجهوداتهم ثمَّ تأسيس مصارف ماليَّة صغيرة تكون واسطة بين الجميع وتكون مع ذلك مستودعاً للأموال المخزونة المعطَّلة ومرجعاً لصناديق التَّوفير والاحتياط الَّتي يجب أن تصحب هذه الحركة(22). وفي هذا نظرة صائبة تمَّ بموجبها مخاطبة شرائح المجتمع الجزائري وحثِّهم على التَّعاون الاجتماعي وممارسة خطة اقتصاديَّة تكون بمثابة التَّأسيس لنظام مالي متنوِّع تنعكس نتائجه على الفرد والمجتمع الجزائري ويقوِّي روح التَّماسك الاجتماعي وبناء شبكة من العلاقات الاجتماعيَّة التَّعاونيَّة وبهذا يكون قد ساهم في توضيح الرُّؤية والنظرة الاقتصاديَّة الَّتي كان يتمنَّاها .

تسخير الإعلام السَّمعي والمكتوب في النُّهوض بحال الشَّعب الجزائري والأمَّة العربيَّة:

استطاع الشَّيخ محمَّد البشير الإبراهيمي من تقديم مشاريعه الإصلاحيَّة والتَّنمويَّة للمجتمع الجزائري وبقيَّة الشُّعوب المسلمة، عن طريق الإعلام المكتوب كالشِّهاب ،والبصائر، والشَّريعة المحمديَّة، ومجلَّة المنار

والزَّيتونة، وغيرها؛ كما قدَّم جملةً من الخطابات الدِّينيَّة والسِّياسيَّة والثَّقافيَّة من خلال إذاعة القاهرة، والكويت وبغداد، وباكستان ومثيلاتها الَّتي لا تُحصى ،كما عمد على تبادل الرَّسائل مع الكثير من السَّاسة ،والمفكِّرين والأدباء، المعاصرين له بحكم تبادل وجهات النَّظر في حال الأمَّة العربيَّة والإسلاميَّة وواقعها المعيش، ومن جانب آخر توجَّه إلى التَّسجيل الصَّوتي لتبليغ رسالة الإصلاح وخاصَّة إلى فئة الشَّباب ،والَّتي عنون لبعضها بعناوين جاذبة كشريط(يا شباب الجزائر كن أو لا تكون) .وكمثال على هذا المجهود من قِبل الشَّيخ ما تناوله عبر إذاعة (بغداد) يونيو 1952 ، ففي كلمته المُذاعة (يقول الغرض الأساسي من رحلتي هو التَّعرُّف إلى إخواني المسلمين بالوصف الجامع بيننا وهو أخوَّة الإسلام ، ودراسة أحوالهم في مواطنهم والاتِّصال بعلمائهم وزعمائهم وقادة الفكر والرَّأي فيهم ، لننظر ونتبادل الرَّأي في إصلاح الفاسد من أحوالهم وإكمال النَّاقص من أعمالهم ، والتَّعاون على تبديل حالتهم بما هو أحسن منها ، وإزالة هذا التَّناكر الَّذي يسود مجتمعاتهم ، وتهيئة الوسائل الممكنة لتعارف الأخ بأخيه.وحثَّ المستمعين الكرام بقوله(في العالم الإسلامي مؤسَّسات كثيرة وجمعيَّات وأحزاب وجرائد ومجلَّات وهذه المؤسَّسات هي الَّتي يجب عليها أن تتعارف بتبادل الزِّيارات والجرائد والكتب والنَّشريات وأن تقف جهودها كلُّها من نقطة ارتكاز وهي تعريف المسلم بأخيه المسلم وتقريب وسائل استفادة المسلم من أخيه المسلم حتَّى يكون التَّعارف مثمراً ثمرات كاملة(23).

■ **إصلاح ذات البين واجب هدفه تفويت الفرصة على العدو الفرنسي ودُعاة الفتنة.**

إنَّ العربي الفاتح لهذا الوطن جاء بالإسلام ومعه العدل ، وجاء بالعربيَّة ومعها العلم فالعدل هو الَّذي أخضع البربر للعرب ولكنَّه خضوع الأخوَّة لا خضوع القوَّة وتسليم الاحترام لا تسليم الاجترام والعلوم هو الَّذي طوَّع البربريَّة للعربيَّة ولكنَّه تطويع البهرج للجيِّدة لا طاعة الأمَّة للسَّيِّدة (24).

■ **مكانة وموقع فلسطين في طرح الشّيخ السّياسي و الثّقافي:**

المتأمِّل في هذا التَّمني للشَّيخ يُدرك مدى تعلُّقه بقضيَّة الأمَّة الإسلاميَّة في قوله (نُريد من فلسطين أن تبقى كما كانت جزءاً طبيعياً من جزيرة العرب مكمِّلاً لبقيَّة الأجزاء وما دامت القضيَّة قضيَّة أحلام فإنَّ لنا جزيرة العرب لحُلماً ... ولكنَّه أقرب من حلم اليهود للتَّحقيق ، وهو أن تُصبح مملكة واحدة ، بدستور واحد ، وثقافة واحدة ، ونقدوا حد لا حدود تفرِّق ولا إمارات تغرِّب وتشرق ، ولا أمراء تمزِّق أهواءهم وتخرق ، ولم لا تكون دولة واحدة ، وإنَّ فيها لأمَّة واحدة ، لا تحتاج في تكثير سوادها إلى الطرَّاق وشذاذ الآفاق ولا تحتاج في تعمير بلادها إلى الواغل الَّذي يزحم ، والوارش الَّذي لا يرحم ، وما بيننا وبين ذلك اليوم إلاّ آفاقه رجل نائم وصحو جوّ غائم: وإن ذلك لقريب ،إنَّه لقريب ومعاذ العروبة أن تقضي جريدة العرب على جزيرة العرب(25).

وفي هذه الرُّؤيا إصلاح لحال الأمَّة ودعوتها للاعتصام ولم الشَّمل وتوحيد للكلمة والموقف.

(معنى كلمة واغل= مشارك في مأدبة من غير دعوة)(الوارش= الطُّفيلي)(الطُّرّاق=الحدَّادين)

■ **الدَّعوة للوحدة العربيَّة والإسلاميَّة في النَّهج الإصلاحي والنَّهضوي للشَّيخ :**

يرى الإبراهيمي أنَّ أولى خطوات أو مراحل الوحدة العربيَّة ، تظافر الجهود من أجل إزالة أقوى أسباب التَّنافر بين الشُّعوب العربيَّة في ميدان الثَّقافة والتَّفكير والاتِّصال بالعصر وأسباب الثَّروة ونهم الحياة وأوضاع الاجتماع (26). و دعا الأمَّة العربيَّة إلى أسباب الوحدة وتداعيات التَّوافق والتَّكتُّل من خلال تحقيق الوحدة العربيَّة و

تعريب كل مناحي الحياة في المجتمع العربي بدء بتعريب الألسنة والأفكار والعقول والأذهان والتَّصوُّرات وحتَّى اللِّباس ووسائل النَّقل وأساليب المعاش وهيئات الأكل والشُّرب والنَّوم وأثاث البيوت ، ولا يتم ذلك إلا عن طريق تعريب المدرسة بدء من الكتَّاب إلى الجامعة وتعريب التَّعليم من المعلِّم إلى الكتاب(27). كما كان الإبراهيمي دائماً خلال المؤتمرات الأدبيَّة والمنتديات الفكريَّة واللِّقاءات العلميَّة كثير الحرص إلى دعوة الأمَّة على ضرورة استقلالها أدبياً وفكرياً ولغوياً أكثر من حرصه على الجوانب السِّياسيَّة والاقتصاديَّة الَّتي لا تبرز على نحو كافٍ خصائص الأمم ومميّزات الشُّعوب .،ومن آرائه الإصلاحيَّة كذلك دعوة المسلمين للعمل بالقرآن ،حيث يقول في هذا المجال ما دام هذا القرآن موجوداً بين المسلمين يقرؤونه ويجلُّونه ويصنعونه في مكانه من التَّقديس ، فإنَّ الأمل في إصلاح المسلمين لا ينقطع لأن أوائلهم ما صلحوا إلاّ به ، فلا يصلح آخرهم إلاّ به ، وماهي إلاّ هبةً من هباته ونفحة من نفحاته تهبُّ على نفوس هذا القطيع المبدّد وإذا قلوبهم المجتمعة ، ونوافرهم متآلفة وأمرهم جميع وإذا بالمعجزة القرآنيَّة الَّتي جمعت العرب بعد ما كانوا عليه من تشتُّت وتدابر تعود ثانية فتنتقل هذه الأمم من حال إلى حال(28) . وفي هذا دعوة صريحة على أن يكون دستور الأمَّة الإسلاميَّة مستمد من القرآن والسُّنة وهي خطوة عميقة في سبيل الوحدة الإسلاميَّة وإصلاح حالها، ومستنكر محاولات التَّنصير للشَّعب الجزائري من خلال المبشِّرين المتعصِّبين(29)وهو بذلك يفوق في طرحه الكثير من دعاة النَّهضة العربيَّة كالشَّيخ رشيد رضا و الكواكبي.

-- نتائج وانعكاسات إصلاحات البشير الابراهيمي على المجتمع :

* المساهمة في تخريج الكثير من المفكِّرين والمثقَّفين الجزائريّين ./ * المشاركة في إحداث طبقة متعلِّمة ناهضت التَّعليم الفرنسي ./ * المشاركة بقسط كبير في النِّظام التَّعليمي الجزائري .

* العمل على إيجاد منهج وبرنامج تربوي مستقل ./ * المساهمة في تكوين الكثير من العقول السِّياسيَّة والثَّوريَّة ./ * المساهمة في إيجاد خطَّة استراتيجيَّة لبعث الثَّورة التَّحريريَّة المباركة .

* مناداة الشُّعوب العربيَّة بالوحدة و التَّمسُّك بتعاليم الإسلام /* تسليط الضَّوء على قضيَّة الأمَّة والمتمثِّلة في فلسطين ./ * الوقوف وراء محاربة البدعة والخرافة في الجزائر ./ * تكوين العقول الجزائريَّة بالمشرق العربي وتركيا ./ * تنشيط الإعلام السَّمعي والمكتوب ./ * تشييد و بناء المئات من المدارس والكتاتيب والمعاهد الإسلاميَّة ./ * التَّقليل من ظاهرة الأمِّيَّة وخروج المرأة للتَّعلُّم ./ * التَّعبئة الجماهيريَّة في المطالبة بالاستقلال والحرِّيَّة وتقرير المصير ./ * تنوير العقول وإخراجها من التَّبعيَّة والجمود ./ * تأثُّر الشَّعب الجزائري بأفكاره وإصلاحاته النَّهضويَّة ./ * بعث روح التَّعاون والتَّضامن في أوساط المجتمع الجزائري ./ * إحياء المناسبات الفكريَّة والدِّينيَّة والتَّربويَّة على نطاق واسع .

-شهادات تاريخيَّة حول الدَّور الإصلاحي للرَّجل:

شهادة مالك بن نبي : أعجبتني بلاغته ، ولكنِّي لاحظت على الخصوص نباهة عقله الَّتي كانت تمسُّ مشكل اجتماعي لم يكن بمقدور أي عالم أن يجاريه كما أتصوَّر(30).

شهادة محمَّد الغزالي : جذبنا الرَّجل بإيمانه العميق وحزنه الظَّاهر على حاضر المسلمين وغيظه المتفجّر ضدَّ الاستعمار ورغبته الشَّديدة في إيقاظ المسلمين ليحموا أوطانه ويستنقذوا أمجادهم وخُيِّل إليَّ أنَّه يحمل في فؤاده آلام الجزائريّين كلَّهم وهم يكافحون الاستعمار الفرنسي ويقدِّمون المغارم سيلاً لا ينقطع حتَّى يحرّروا أرضهم من الغاصبين الطُّغاة وكان في خطبته يزأر كأنَّه أسد جريح فكان ينتزع الوجل من أفئدة الهيَّابين ويهيّج في نفوسهم الحميَّة لله ورسوله فعرفت قيمة الأثر الَّذي يقول: ((إن مداد العلماء يوزن يوم القيامة بدم الشُّهداء)) (31).

شهادة الشَّيخ يوسف القرضاوي: هذا الرَّجل النَّابغة يشهد التَّاريخ أنَّه واضع أساس النَّهضة الفكريَّة في الجزائر، و قد سلك لها المسلك العلمي الحكيم، و هو مسلك التَّربية و التَّعليم، و أعانه على ذلك استعداده الفكري و كمال أدواته(32).

شهادة أحمد طالب الابراهيمي : ساهمت هياكل الجمعيَّة في إعطاء المزيد وإعادة اكتشاف الذَّات من خلال مدارسها تمكنَّا من معرفة تاريخنا ولغتنا وتاريخنا في لغتنا وعرفنا كذلك قيمنا الثَّقافيَّة وهي شهادة على الدَّور الإصلاحي الكبير الَّذي لعبه البشير الإبراهيمي ورفاقه من الجمعيَّة(33). هذه الشهادات جمعت في رأيها حول الشَّيخ بين الاجتماع والثَّقافة، والدِّين، والسِّياسة والتَّاريخ.

الخاتمة :

الشَّاهد في القضيَّة أنَّ الشَّيخ محمد البشير الإبراهيمي وظَّف كلَّ مساعيه الفقهيَّة والدِّينيَّة والفكريَّة والسِّياسيَّة والاجتماعيَّة وتجاربه التّربويّة والتّعليميّة والتَّاريخيَّة العميقة من أجل ترشيد وتفعيل عامل الإصلاح في استنهاض القيم والهمم وزرع بذور التَّغيير في ذهنيَّة وعقليَّة كل جزائري وعربي ومسلم من أجل إظهار شخصيَّته المميَّزة الَّتي تعتز بفكرها وماضيها الحضاري المجيد .

قائمة المراجع:

1-عمَّار جيدل: أسس بعث الفعاليَّة في فقه الإمام الإبراهيمي، مجلَّة الوعي-العدد-2-نوفمبر 2010.

2- محمد البشير الإبراهيمي: خلاصة تاريخ حياتي العلميَّة والعمليَّة 1 .

3-قريسي ظريفة :اللُّغة العربيَّة ج 2 ، وزارة التَّربية ، الدِّيوان الوطني للتَّعليم والتَّكوين عن بعد ، الجزائر ، 2012 ، ص 96 .

4-مقالة محمَّد الوزّاني:جوانب الإصلاح عيون البصائر في دعوة الشَّيخ محمَّد البشيرالإبراهيمي(ص34).

5- أحمد طالب الإبراهيمي : آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، ط 1 جزء 3 ،دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1997 ، ص عيون البصائر : 274 .

6-المرجع السَّابق عيون البصائر ،ص 229 .

7- قريسي ظريفة :اللُّغة العربيَّة ج 2 ، وزارة التَّربية ، الدِّيوان الوطني للتَّعليم والتَّكوين عن بعد الجزائر ، 2012 ، ص 81 .

8- آثار الإمام محمَّد البشير الإبراهيمي ،ج2، ص 78 .

9-أحمد طالب الإبراهيمي : آثار الإمام محمَّد البشير الإبراهيمي ، ط 1 جزء 2 ،(1954 . 1962) دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1997 ، ص 109.

10-آثار الإبراهيمي الجزء 5 ، ط 1 ، ص 193 .

11- آثار الإمام محمَّد البشير الإبراهيمي ،ج3 ،ص 296 .

12- آثار الإمام محمَّد البشير الإبراهيمي ،ج3 ،ص 273 .

13 آثار الإمام محمَّد البشير الإبراهيمي ،ج1 ،ص 144 .

14- آثار الإمام محمَّد البشير الإبراهيمي ،ج1 ،ص 154 .
15- معجم المعاني الجامع ،معجم عربي عربي .
16- آثار الإمام محمَّد البشير الإبراهيمي ،3 ،ص 203 .
16- آثار الإمام محمَّد البشير الإبراهيمي ،3 ،ص 154 .
17- البصائر : العدد 15 ، 1 ديسمبر ، ج 3 ص 304 .
18-الفضيل الورتلاني: الجزائر الثَّائرة ، ص 177 / 178 ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر 2007 .
مجلَّة الشِّهاب، الجزء التاسع، المجلَّد العاشر، أوت 1934، ص 415 · 19-
20-أحمد الطَّالب الإبراهيمي : آثار الإمام محمَّد البشير الإبراهيمي ، ط 1 جزء 5 ،(1954 . 1962 دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1997 ، ص 283 / 284 .
21- آثار الإمام محمَّد البشير الإبراهيمي ، الجزء 1، ط 1 ص 56 .
22- أحمد طالب الابراهيمي : آثار الإمام محمَّد البشير الإبراهيمي ج 4 ، ط 1 ، دار المغرب الإسلامي ، بيروت ، 1997 ، ص 97 .
23- آثار البشير الإبراهيمي ، ج 3 ،ص207.
24 - آثار البشير الإبراهيمي ، ج 3 ،ص447.
25 - أحمد الطَّالب الإبراهيمي : آثار الإمام محمَّد البشير الإبراهيمي ج 4 ، ط 1 ، دار المغرب الإسلامي ، بيروت ، 1997 ، ص 377/376 .
26- أحمد طالب الإبراهيمي : آثار الإمام محمَّد البشير الإبراهيمي ، ط 1 جزء 5 ،(1954 . 1962 دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1997 ، ص 276 .
27- أحمد طالب الإبراهيمي : آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، ج 4 ، ط 1 (1952. 1954) دار المغرب الإسلامي ، بيروت ، 1997 ، ص 79 .
28- أحمد طالب الإبراهيمي : آثار الإمام محمَّد البشير الإبراهيمي ، ط 1 جزء 5 ،(1954 . 1962 دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 1997 ، ص 140.
29-nadjib achour :cheikh mohamed el bachir el ibrahimi et la revoulation ,article,par samir,16 mai,2011.
30-مالك بن نبي : العفن ، ترجمة نور الدِّين خندودي ، ج 1 ، 1932 / 1940 ، ط 1 ، دار الأمَّة ، 2007 ، ص 75 .
31- محمَّد الغزالي : مع البشير الإبراهيمي بالقاهرة ، مجلَّة الثَّقافة الجزائريَّة ، عد 87 ، سنة 1985 ، ص 95 / 99 .
32- يوسف القرضاوي: مقوّمات الفكر الإصلاحي عند الإمام محمَّد البشير الإبراهيمي، الملتقى الدُّولي للإمام محمَّد البشير الإبراهيمي،الجزائر،22/23 ماي،2005.
33- Nadjib achour : Le cheikh moha med el bachir el ibrahimi : le combat pour la personalite algerienne,2 juin2009,4h11min.